أو أن (لا عاصم لهم) بمعنى : أن الله تعالى لن يأمر بعد ذلك بألاّ يُعذَّبوا .

ولا يقتصر أمرهم على ذلك فقط ، بل يقول الحق سبحانه : ﴿ **كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا** ﴾ أى : كأن قطعاً من الليل المظلم قد غطت وجوههم ، ويكون مأواهم النار ﴿ **أُوْلَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ .

هذا هو حال الذين كذَّبوا بآيات الله تعالى وكذبوا الرسل ، وتأبَّوا عن دعوة الله سبحانه وتعالى إلى دار السلام واتبعوا أهواءهم واتخذوا شركاء من دون الله تعالى .

وشاء الحق سبحانه أن يُجلِّى لنا ذلك كله فى الدنيا ؛ حتى يكون الكون كله على بصيرة بما يحدث له فى الآخرة ؛ لأنه نتيجة حتمية لما حدث من هؤلاء فى الدنيا .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا
مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم
مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

والحشر : هو أخذ الناس من أمكنة متعددة إلى مكان واحد ، وستقذف هذه الأمكنة المتعددة مَنْ فيها مِنَ الكَفَرة ؛ ليصيروا فى المكان الذى شاءه الله سبحانه لهم .

وكلما اقترب الناس من هذا المكان ؛ ازدحموا ، وذلك شأن الدائرة

بمحيطها ، والمحيطات الداخلة فيها إلى أن تلتقى فى المركز ، فأنت إذا نظرت إلى محيط واسع فى دائرة ، وأخذت بعد ذلك الأفراد من هذا المحيط الواسع ؛ لتلتقى بهم فى المركز ؛ فلا شك أنك كلما اقتربت من المركز ؛ فالدوائر تضيق ، ويحدث الحشر .

فكأننا سنكون مزدحمين ازدحاماً شديداً ، ولهذا الازدحام متاعب ، ولكن الناس سيكونون فى شغل عنه بما هم فيه من أهوال يوم القيامة [1] .

وقوله الحق : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ تفيد الجمع المؤكد لحالات الذين لم يستجيبوا لمنهج الله تعالى ، ولا لدعوة الله سبحانه لهم لدار السلام ، وكذبوا رسلهم ، واتخذوا من دون الله تعالى أنداداً ، فيجمع الله سبحانه المُتَّخِذَ أنداداً [2] ، والمُتَّخَذَ نداً ، ويواجههم ؛ لتكون الفضيحة تامة وعامة ، بين عابد عبد باطلاً ، ومعبودٍ لم يطلب من عابده أن يعبده ، أو معبود طلب من عابده أن يعبده .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [يونس]

وهكذا يتلاقى من عَبَدَ الملائكة مع الملائكة ، ويتلاقى من عَبَدَ رسولاً وجعله إلهاً ، ومن عبد صنماً ، أو عبد شمساً ، أو عبد قمراً ، أو جنّاً

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غُرْلاً » قلت : يا رسول الله ، النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض . قال ﷺ : « يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٥٩) والبخارى (٦٥٢٧) فهول يوم القيامة هول شديد ، حتى إن الناس يتمنون أن ينتهى يوم الحساب حتى ولو كان مصيرهم إلى النار .

(٢) الند : المثل والنظير ، والجمع أنداد . قال تعالى : ﴿ وجعلوا لله أندادا .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [إبراهيم] أى : أضداداً وأشباهاً . وقال تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله ﴿١٦٥﴾ ﴾ [البقرة] [ اللسان : مادة (ندد) ] .

أو شيطاناً من شياطين الإنس أو شياطين الجن.

إذن : فالمعبودون متعددون ، وكل معبود من هؤلاء له حكم فى ذلك الحشر ، وستكون المواجهة علنية مكشوفة .

فإذا نظرنا إلى العابد الذى اتخذ إلهاً باطلاً سواء أكان من الملائكة أو رسولاً أرسل إليهم ؛ ليأخذهم إلى عبادة إله واحد - هو الله سبحانه وتعالى - ففتنوا فى الرسول وعبدوه ، أو عبدوا أشياء لا علم لها بمن يعبدها : كالأصنام ، والشمس ، والقمر ، والأشجار .

أما المعبود الذى له علم ، وله دعوة إلى أن يعبده غيره ، فهو يتركز فى شياطين الإنس ، وشياطين الجن ، وإبليس .

أما الملائكة فإن الله - سبحانه وتعالى - يواجههم بمن عبدهم ، فيسألهم : أأنتم وعدتم هؤلاء ؛ ليتخذوكم آلهة ، فيقولون : سبحانك أنت ولينا ، ويتبرأون من هؤلاء الناس ، مصداقاً لقول الحق سبحانه : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا .. (١٦٦) ﴾ [البقرة]

والملائكة لا علم لهم بمن اتخذهم آلهة ، وإذا انتقلنا إلى البشر وعلى قمتهم الرسل عليهم السلام ، فيأتى سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام ، ويقول الحق سبحانه له : ﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ .. (١١٦) ﴾ [المائدة]

فيقول سيدنا عيسى عليه السلام ما جاء على لسانه فى القرآن الكريم : ﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ .. (١١٦) ﴾ [المائدة]

فكأن هؤلاء قد عبدوا من لا علم له بهذا التأليه ، ولم يَدْعُ إليه .

والأصنام كذلك ليس لها علم بمن ادَّعى ألوهيتها ، ولكن الذى له علم بتلك الدعوة هو إبليس ، ذلك أنه حينما عز عليه أنه عاص لله ، أغوى آدم ، ثم تاب آدم عليه السلام وقَبِل الله سبحانه وتعالى توبته ، أما إبليس فلم يتب عليه الحق سبحانه ؛ لأنه رد حكم المولى - عز وجل - بالسجود لآدم ، واستكبر ، وظن نفسه أعلى مكانة [1] . أما آدم عليه السلام فلم يرد الحكم على الله تعالى .

يقول الحق سبحانه :

**﴿ ولقدْ خلقْناكُمْ ثُمَّ صوَّرْناكُمْ ثُمَّ قُلْنا للْملائكة اسْجُدُوا لآدم فسجدُوا إلاَّ إبْليس لمْ يكُن مّن السَّاجدين (١١) قال ما منعك ألاَّ تسْجُد إذْ أمرْتُك قال أنا خيْرٌ مّنْهُ خلقْتني من نَّارٍ وخلقْتهُ من طينٍ (١٢) ﴾** [الأعراف]

ومن ذلك نأخذ مبدأ إيمانياً موجزه أن الذين لا يقدرون على أنفسهم فى إخضاعها لمنهج الله تعالى ، فمن الخير لهم أن يقولوا : إن منهج الله سبحانه هو الصدق ، وحكمه سبحانه هو الحق ، ولكننا لم نستطع أن نُخضعَ أنفسنا للحكم ؛ وبذلك يخرجون من دائرة رد الأمر على الآمر ، وبإمكانهم أن يتوبوا بنية عدم العودة إلى المعصية .

إذن : فالمخاصمة والمحاجّة [2] موجهة من إبليس لذرية آدم ، فقد أقسم

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد ؛ اعتزل الشيطان يبكى يقول : يا ويله ، أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود فأبيت فلى النار» أخرجه مسلم فى صحيحه (٨١).

(٢) المحاجَة : المغالبة والجدال . والحُجّة : الدليل والبرهان . وحَجّه وحَاجّه : غلبه على حُجّته . قال تعالى : ﴿ فإن حاجُّوك فقلْ أسلمْتُ وجْهي لله ..(٢٠) ﴾ [آل عمران ] قال الأزهرى : إنما سميت الحُجّة حُجّة ؛ لأنها تُحَجّ ، أى : تُقْصَد لأن القصد لها وإليها ؛ وكذلك مَحَجّة الطريق هى المقصد والمسلك [اللسان : مادة(حجج)].

إبليس بعزة الله سبحانه أن يُغوى كل أبناء آدم إلا الذين استخلصهم الله لعبادته سبحانه وتعالى ؛ فقد علم إبليس أنه غير قادر على إغوائهم[1] .

وهكذا تكون عزة الله سبحانه هى التى تمكِّن إبليس - وذريته من الشياطين - من غواية أو عدم غواية خلق الله سبحانه وتعالى .

والشياطين هم الجن العُصَاة ؛ لأننا نعلم أن الجن جنس يقابل جنس البشر ، ومن الجن من هو صالح طائع ، ومنهم من هو عاص ، ويُسمّى شيطاناً ، ويخدم إبليس فى إغواء البشر ، فيتسلَّط على الإنسانَ فيما يعلم أنها نقطة ضعف فيه .

فمن يحب المال يدخل الشيطان إليه من ناحية المال ، ومن يحب الجمال يدخل له الشيطان من ناحية الجمال ، ومن يحب الجاه يجد الشيطان وهو يزيِّن له الوصول إلى الجاه بأية وسيلة تتنافى مع الأخلاق الكريمة ومنهج الله عز وجل .

وكل إنسان له نقطة ضعف فى حياته يعرفها الشيطان ويتسلل منها إليه ، وقد يُجنِّد إبليس وذريته أناساً من البشر يعملون بهدف إغواء الإنسان لإفساده .

فهناك - إذن - ثلاثة يطلبون أن ينصرف الناس عن منهج الله تعالى ودعوة الحق ؛ وهؤلاء الثلاثة هم : إبليس ، والعاصون من الجن (أى : الشياطين) ، ثم البشر الذين يشاركون إبليس فى الإغواء ، وهم شياطين الإنس الذين يعملون أعمالاً تناهض منهج الرسل .

---

(١) قال سبحانه عن إبليس : ﴿قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين (٨٢) إلا عبادك منهم المخلصين (٨٣)﴾ [ص] ، وهؤلاء المخلَصون هم عباد الرحمن الذين ذكر الله أوصافهم فى سورة الفرقان آيات (٦٣ - ٧٤) ، وعن أبى سعيد الخدرى فى حديث أن إبليس قال : «يا رب وعزتك وجلالك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم فى أجسادهم . فقال الله تعالى : وعزتى وجلالى ولا أزال أغفر لهم ما استغفرونى» أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٢٩) والحاكم فى مستدركه (٤/ ٢٦١) وصححه وأقره الذهبى .

وهل يكون الحوار - يوم القيامة - بين الملائكة ومَنْ عَبَدُوهم منَ البشر؟ وهل يكون الحوار بين الأصنام والذين عبدوها دون علمها ؟ وهل يكون الحوار بين عيسى عليه السلام ومن اتخذوه إلهاً دون علمه ؟

ها نحن نجد عارفاً بالله يقول على لسان الأصنام :

«عَبَدُونا ونحن أعْبَدُ لله منَ القائمينَ بالأسْحَار [1]»

لأن الحق سبحانه هو القائل : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. (٤٤)﴾ [الإسراء]

ويكمل العارف بالله :

«اتَّخَذُوا صَمْتَنَا علينا دليلاً فَغَدَوْنا لَهُم وَقُودَ النار»

والحق سبحانه هو القائل : ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ .. (٢٤)﴾ [البقرة]

ويتابع العارف بالله :

«قَدْ تَجَنَّوا جهلاً كما تَجَنَّوا على ابنِ مَرْيم والحَوَارِي [2]»

فما موقف الله سبحانه من هؤلاء وأولئك ؟ فنقول:

إن للمُغَالِي جَزَاءهُ ، والمُغَالَى فيه تُنْجيه رحمةُ الغَفَّار».

وهكذا وَضُحَ موقف كل من يعبد غير الله سبحانه أو يشرك به ، هؤلاء

---

(١) الأسحار : جمع السَّحَر وهو آخر الليل قبيل الصبح . لسان العرب (مادة سحر) . والقائمون بالأسحار هم المتعبدون المتهجدون بالليل .

(٢) أي : الحواريون وهم أصحاب عيسى عليه السلام وأنصاره ، الذين خلصوا من كل عيب ، كالدقيق الأبيض الذي ينقى من اللباب . (اللسان : مادة حور) .

الذين يشملهم قول الحق سبحانه: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ..(٢٨)﴾[1]
[يونس]

وهكذا يُحشَر مَنْ عبدوا الأصنام أو الكواكب أو أشركوا بالله ، وكذلك شياطين الجن والإنس ، الجميع سيحشرون في الموقف يوم الحشر ، وليتذكر الجميع في الدنيا أن في الحشر ستُكشَفُ الأمور ويُفضح فيه كل إنسان أشرك مع الله غيره ، سبحانه ، وستحدث المواجهة مع مَنْ أشركه بالعبادة مع الله سبحانه دون علْم من الملائكة أو الرسل أو الكواكب أو الحجارة بأمر هؤلاء ، ويأتيهمَ جميعاً أمر الحق سبحانه : ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ ..(٢٨)﴾
[يونس]

وحين تسمع الأمر : «مكانك» فهو يعني : «الزمْ مكانك» وهي لا تُقال للتحية ، بل تحمل التهديد والوعيد ، وانتظار نتيجة موقف لن يكون في صالح من تُقال له ، ونعرف أن الملائكة ، والرسل ، والكواكب ، والحجارة ليس لها علم بأمر هؤلاء الذين عبدوهم.

إذن : فالذين ينطبق عليهم هذا الأمر هم هؤلاء المشركون الذين ظنوا أن بإمكانهم الإفلاتَ من الحساب ، لكنهم يسمعون الأمر ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ ، فهل يعني ذلك أنهم سوف يأتون مع الملائكة ومَنْ عُبد من الرسل والكواكب والحجارة في موكب واحد ؟ لا ؛ لأن هؤلاء العبيد اتفقوا على موقف باطل ،ويشاء الحق سبحانه أن يفصل بين الحق والباطل.

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨)﴾[2]
[يونس]

---

(١) نحشرهم : نجمعهم للحساب . ومنه يوم المَحْشَر . والحَشْر : جمع الناس يوم القيامة . قال تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ..(٢٠٣)﴾ [البقرة].

(٢) زيَّلنا بينهم : فرَّقنا بينهم . والتَّزايل : التباين . قال تعالى : ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥)﴾ [الفتح] [اللسان : مادة ( ز ي ل )].

أى : جعل من المشركين فريقاً ، وجعل من الذين عُبِدُوا دون علمهم فريقاً آخر ، وأعلن فريقُ مَنْ عُبِدوا دون علمهم : ﴿مَا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ .. (٢٨)﴾ [يونس]

أى : ما كنتم تعبدوننا بعلمنا.

وانظروا إلى الموقف المُخْزى لمن عبدوا غير الله سبحانه ، أو أشركوا به ، إن الواحد منهم قد عبد معبوداً دون أن يدرى به المعبود ، مع أن الأصل فى العبادة هو التزام العابد بأمر المعبود ، وهذه المسألة تَصْدُق على الملائكة وسيدنا عيسى عليه السلام ، وتصدق أيضًا على الكواكب والأحجار ؛ لأن الحق سبحانه الذى يُنطق أبعاض الإنسان يوم القيامة ؛ لتشهد على صاحبها ، قادر على أن يُنْطق الأحجار.

والحق سبحانه هو القائل:

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ .. (٢١)﴾ [فصلت]

ونجد الصنم يوم القيامة وهو يلعن مَنْ عبده ، تماماً مثلما يتبرأ الجلد من صاحبه إنْ عصى الله تعالى ، فالحق سبحانه يقول : ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤)﴾ [النور]

ولكن لا تترك عقلك يتخيل كيفية تكلُّم الصنم ، فأنت آمنت أن جوارح الإنسان من يد ورجل وجلد ستنطق يوم القيامة ، فهل تعقَّلت كيف تنطق اليد ، وكيف ينطق الجلد ، وكيف تنطق الرِّجْل فى الآخرة ، أنت تؤمن بخبر الآخرة فلا تنظر إلى معطيات أمور الآخرة بقوانين الدنيا ؛ لأن كل

شيء يتبدَّل فى الآخرة ، ألم تخبرك السنة أنك ستأكل فى الجنة ، ولا تُخْرِج فضلات [١] ؟

وهذا أمر غير منطقيّ - بقوانين الدنيا - ولكننا نؤمن به ، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى يخبرنا بأشياء سوف تحدث فى الجنة ، لو قسْناها بعقولنا على ما نعرف فى الدنيا لوقفت أمامها عاجزة ، لكن القلب المؤمن يعقل أمور القيامة والآخرة على أساس أنها غيب ، والمقاييس تختلف فيها ؛ لأن الإنسان مظروف [٢] بين السماء والأرض. وللدنيا أرض وسماء ، وللآخرة أيضاً أرض وسماء ؟

والحق سبحانه يقول : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَـٰوَاتُ.. (٤٨) ﴾ [إبراهيم]

إذن : فكل شيء يتبدّل يوم القيامة ، فإذا حُدِّثْتَ أن الأصنام تنطق مستنكرة أن تُعبَد من دون الله تعالى ، وأن الملائكة تلعن من عبدوها من دون الله سبحانه ، فلا تتعجب.

ثم يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

إذن : فالكائنات التى عُبِدتْ من دون الله تعالى تعلن رفضها لمسألة عبادتها ، فإذا كان الطير - ممثلاً فى الهدهد - قد أعلن من قبل اندهاشه

---

(١) عن جابر بن عبد الله قال : سمعت النبى ﷺ يقول : «إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يتمخطون. قالوا : فما بال الطعام ؟ قال : جشاء أو رشح كرشح المسك ، يُلْهَمُون التسبيح والتحميد». أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٣٥) ، وأحمد فى مسنده (٣/ ٣٦٤).

(٢) أى : أن الإنسان محل لظروف الزمان والمكان ، بين أرض الدنيا وسمائها وأرض الآخرة وسمائها ، تختلف بينهما قوانين الحياة فى كل منهما.

من أن بعضاً من البشر قد عبد غير الله تعالى [1].

واستدل الهدهد - على قدرة الحق سبحانه - بما يخصُّه هو من الرزق ، حيث يعلم أن الحق سبحانه قد عَلِمَ الخبء في السموات والأرض ، إذا كان الهدهد قد عرف ذلك فالاستنكار أمر منطقى من غيره من المخلوقات ، سواء أكانت من الملائكة ، أو من عيسى عليه السلام ، أو من الأصنام والأشجار والكواكب.

ولذلك نجد الحق سبحانه يضرب المثال بسؤاله للملائكة : ﴿أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ..(٤٠)﴾ [سبأ]

فيجيب الملائكةُ بقولهم : ﴿سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ .. (٤١)﴾ [سبأ]

والحق سبحانه وتعالى يعرض هذه المواقف في سُوَر القرآن الكريم عرضاً منثوراً [2] مكرراً بما لا يدع للغفلة أن تصيب الإنسان ، فمثلاً يقول الحق سبحانه :

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم [3] مِّنَ الإِنسِ ..(١٢٨)﴾ [الأنعام]

ويقول على ألسنة من اتخذوا الشياطين أولياء :

﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا .. (١٢٨)﴾ [الأنعام]

---

(١) وذلك في قصة الهدهد مع سليمان : ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤)﴾ [النمل].

(٢) المنثور : الشيء يُلقى متفرقاً هنا وهناك كالحَبِّ وغيره. [اللسان : مادة نثر].

(٣) أي : أضللتم منهم كثيراً وأكثرتم من إغوائهم وإضلالهم.

وقولهم هذا يتضمن الحديث عن ذواتهم والحديث عن الجن.

ولسائل أن يسأل : وكيف يأخذ الجن كثيراً من الإنس؟

ونقول : إن الحق سبحانه قد خلق الجن على هيئة تختلف عن هيئة الإنس ، فجعل للجن خواصّاً تختلف عن خواصٍ الإنس ، ومن هذه الخواص ما قال عنه الحق سبحانه : ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ[1] مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ .. (٢٧)﴾ [الأعراف]

وأعطى الحق سبحانه للجن قوة أكثر مما أعطى للإنس ، وأعطاهم القدرة على النفاذ من السواتر الحديدية والجدران وغيرها ، وهذا أمر منطقي مع أصل تكوين الجن ، فالجن مخلوق من النار ، والإنسان مخلوق من الطين. وهناك اختلاف بين طبيعة كل من النار والطين ، فما يخرج من الطين قارٌّ[2] ، أي : لا يشع ، وما يخرج من النار له إشعاع وحرارة.

بمعنى : أنك لو كنت تجلس في حجرة ، وخلف ظهرك في الحجرة الأخرى نار موقدة ؛ فالساتر - أيا كان - سوف يحمل لك بعضاً من حرارة النار ، إلا لو كان عازلاً للحرارة.

أما لو كانت هناك تفاحة - وهي مخلوقة من الطين - موجودة في الحجرة الأخرى ، فلن ينفذ طعمها أو رائحتها إليك.

إذن : فالنار لها قانونها ، والطين له قانونه. وقانون المادة المخلوقة من الطين لا ينتقل إلا إذا نَقَلْتَ الجرْم[3] إلى المكان الذي توجد فيه.

---

(١) القَبيل : الجماعة من الناس يكونون من الثلاثة فصاعداً من قوم شتّى ، كالعرب ، والروم ، والزنج ، وقد يكونون من نحو واحد ، وربما كان القبيل من أب واحد كالقبيلة. وكل جيل من الجن والناس قبيل. قال تعالى : ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢)﴾ [الإسراء]. [اللسان : مادة (قبل)].

(٢) قار : أي : مستقر في مكانه لا ينتقل منه شيء إلا إذا نقلته أنت. يقال : فلان قارٌّ ، أي : ساكن ثابت. (اللسان : مادة قرر).

(٣) الجرْم : الجسم. والجمع (الأجرام).

ونلمح هذه المسألة التقنينية فى قصة سيدنا سليمان عليه السلام حين علم أن ملكة سبأ تسير فى الطريق إليه لتعلن إسلامها ، وأراد سيدنا سليمان عليه السلام أن يأتى لها بعرشها من مكانه قبل أن تصل .

فقال لمن هو فى مجلسه : ﴿ **أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ** ..(٣٨) ﴾ [النمل]

وهذا يدل على أنه كان فى مجلسه أجناس مختلفة ، ولكل جنس منهم قدرات مختلفة عن قدرات الجنس الآخر ، ونقل العرش من اليمن إلى مكان سيدنا سليمان عليه السلام يحتاج إلى زمن وإلى قوة ، فلو أنهم كانوا متساوين فى قدراتهم ما قال : ﴿ **أَيُّكُمْ يَأْتِينِي** .. (٣٨) ﴾ [النمل]

فكان أول من تقدم لتنفيذ ما أراده سليمان عفريت من الجن - لا جناً عادياً ، فمن الجن من هو خائب قليل الذكاء ،ومنهم من هو ذكى ، فهم وإن كانوا من جنس واحد فهم متفاوتون أيضًا ، وكان عفريت الجن هو أول من تكلم ، وقال : ﴿ **أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ** .. (٣٩) ﴾ [النمل]

ولكن مقام سليمان قد يستمر ساعة أو بضع ساعات [1] ، والمتكلم هو عفريت من الجن الذى يعلم أن له صفات أقوى من صفات الإنس . أما الإنس العادى - ممن كان حاضراً مجلس سليمان- فلم يتكلم ؛ لأن المطلوب ليس فى قدرته ، أما الذى تكلم من الإنس فهو مَنْ عنده علم من الكتاب، فقال : ﴿ **أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ** [2] .. (٤٠) ﴾ [النمل]

ولم يأخذ الأمر شيئاً من الزمن ؛ لذلك عبَّر القرآن التعبير السريع بعد ذلك ، فقال : ﴿ **فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي** ..(٤٠) ﴾[النمل]

---

(١) كان سليمان عليه السلام يجلس للقضاء بين الناس فى مظالمهم من أول النهار إلى أن تزول الشمس .
(٢) الطرف : طرف العين ، وهو أيضاً إطباق الجفن على الجفن . (اللسان : مادة طرف) .

إذن : فللجن قوة على أشياء لا يقوى عليها الإنس [١] ، ولم يأخذ الجنّى خواصّه فى الخفة والقدرة ومهارة اختزال الزمن بذات تكوينه ، ولكن بإرادة المكوِّن سبحانه ؛ ولذلك شاء الحق أن يُذكِّر الجن أنهم قد أخذوا تلك الخصوصيات بمشيئته سبحانه ، والحق هو القادر على أن يجعل الإنس وهو الأدنى قدرة ، قادراً على تسخير الجن ؛ ولذلك يحاول الإنس أن يأخذ من تسخير الجن قوة له فيقوى على نظيره من الإنس.

ولكن الحق سبحانه أصدر الحكم على مَنْ يحاول ذلك بأن تسخير الجن يزيد رَهَقاً [٢].

واقرأوا قول الحق سبحانه :

**﴿ واتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ ..(١٠٢) ﴾**

[البقرة]

إذن : فتعليم الجن السحر للإنس دليل على تفوق قدرات الجن وتميزها عن قدرات الإنس.

---

(١) يقول الإمام : إن للجن قوة بحسب تكوينه النارى تفوق قوة الإنسان ، ثم يفيض علينا أن الإنسان بمنهج الله له قوة مددية من الله إذا عايش المنهج ، وفهم أسرار الكتاب ، يتجلّى ذلك فى أن الشيطان قال لسليمان : ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) ﴾ [النمل] إذن : الواصل بالله أقوى من الكل ، هذا من حيث العطاء الإلهى ، أما من حيث التكوين فالإنسان من طين ، والطين ليس كالنار.

(٢) وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) ﴾ [الجن] أى : ذلة وضعفاً. قال السدى : كان الرجل يخرج بأهله فيأتى الأرض فينزلها فيقول : أعوذ بسيد هذا الوادى من الجن أن أضر أنا فيه أو مالى أو ولدى أو ماشيتى. ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٤٢٨).

ولكن الملكين هاروت وماروت [1] حينما علَّمَا الإنسان السحر حذَّراه أولاً من أن يأخذ من ذلك فرصة زائدة تطغيه على بنى جنسه ويظلم بها ، إنما الأمر كله اختبار ، فإن تعلَّمته فذلك لتقىَ نفسك من الشر لا لتوقعه بغيرك ، ثم إنك - أيها الإنسان - من الأغيار قد تضمن نفسك وقت التحمُّل ، ولكن ماذا عن وقت الأداء ؟

مثلما يأتى لك إنسان ليُودِعَ عندك ألفاً من الجنيهات كأمانة ، ولكن أتظل على الأمانة ، أم أنك قد تنكر المال أصلاً حين يطالبك به صاحبه ، أو قد تمر بك أزمة مالية فتتصرف بهذا المال ؟

ولذلك تجد الذكى هو مَنْ يقول لمودع هذا المال : «احفظْ عليك مالك ، لأنى من الأغيار» .

وتلك هى القضية الإيمانية الأصيلة فى الكون كله ؛ لأن الحق سبحانه هو القائل :

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ [2] عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب]

والأمانة هى ما يكون فى ذمة المؤتمن ، ولا حجة للمؤتمن عنده إلا ذمته ، ولا شهود عليه ، ولا يوجد إيصال بتلك الأمانة ، بل هى وديعة لا توثيق فيها ؛ إلا ذمة المؤتمن ، قد يقرُّ بها ، وقد يُنكرها .

---

(١) هاروت وماروت ملكان من السماء ، أنزلا إلى الأرض ، وقيل إنهما لم تعجبهما أحكام بنى آدم فى العباد ، فأهبطا ليحكما بين الناس ، وكانا يعلمان الناس السحر ، فأخذ عليهما أن لا يعلمان أحداً حتى يقولا : إنما نحن فتنة فلا تكفر .

(٢) اختلف العلماء فى تفسير الأمانة فى الآية ، ولكن أجمع قول فيها أنها الطاعة بالاختيار ، قال ابن عباس : هى الطاعة عرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم فلم يطقنها ، فقال لآدم : إنى قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم يطقنها فهل أنت آخذ بما فيها؟ قال : يا رب وما فيها؟ قال : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت . فأخذها آدم فتحمَّلها . انظر ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٥٢٢) .

وعلى ذلك فحقُّ المؤتمن عند المؤتَمَن خاضعٌ لخيار المؤتَمَن ؛ ولذلك وجدنا السماء والأرض والجبال قالت : يا رب لا نريد أن نُدخلَ أنفسنا فى هذه التجربة ، افعل بنا ما شئت واجعلْنَا مقهورين ولا اختيَار لنا ، ولا نريد تحمُّل الأمانة .

أما الإنسان فقد ميَّزه الله بالعقل ، وقدرة الاختيار بين البدائل ؛ لذلك قَبِلَ الإنسان حَمْل الأمانة ، وحين جاء وقت الأداء لم يجد نفسه أميناً على الأشياء مثلما ظَنَّ فى نفسه وقت التحمُّل .

وكذلك الذين يتعلمون السحر ، يقول الواحد منهم لنفسه : سوف أتعلمه لأدفع الضُّرَّ عن نفسى ، ونقول له : أنت لا تضمن نفسك ؛ لأنك من الأغيار ، فقد يغضبك أو يثير أعصابك إنسان ؛ فتستخدم السحر فتصيب نفسك بالرَّهق .

إذن : فحين قال الله سبحانه : ﴿**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ ..** (١٢٨)﴾ [الأنعام]

أى : أخذتم من الإنس كثيراً بأن أعطيتموهم سلاحاً يحقق لهم فرصة وقوة على غيرهم من البشر .

وقد ذكر الحق - سبحانه وتعالى - لنا أن بعض البشر الذين استجابوا للجن قالوا : ﴿**اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ..** (١٢٨)﴾ [الأنعام]

واستمتاع الإنس بالجن مصدره أن الإنس يأخذ قوة فوق غيره من البشر ، واستمتاع الجن بالإنس مصدره أنه سوف يُعين هذا الإنسان على معصيته ؛ تطبيقاً لقَسَم إبليس اللعين : ﴿**فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ**[1] **أَجْمَعِينَ** .. (٨٢)﴾ [ص]

(١) الإغواء : الإضلال . قال تعالى : ﴿**فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ** (٣٢)﴾ [الصافات] . [اللسان : مادة (غوى)] .

ولكن هذا الاستمتاع فى النهاية لا يعطى أمراً زائداً عن المقدور لكل جنس ؛ ولذلك تجد أن كل مَنْ يعمل بالسحر وتسخير الجن إنما يعانى ؛ مصداقاً لقول الحق سبحانه : ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ..(٦) ﴾ [الجن]

وأنت تجد رزق الذى يقوم بالسحر أو تسخير الجن يأتى من يد مَنْ لا يعلم السحر ، ولو كان فى تعلُّم ذلك ميزة فوق البشر ؛ لجعل رزقه من مصدر آخر غير من لا يعلمون السحر أو تسخير الجن.

وأنت حين ترى الواحد من هؤلاء ، تجد على ملامحه غَبَرَةً ، وفى ذريته آفة أو عيباً ، فمنهم مَنْ هو أعور أو أكتع [1] أو أعرج ؛ لأنه أراد أن يأخذ فرصة فى الحياة أكثر من غيره من البشر ؛ بواسطة الجن ، وهذه الفرصة تزيده رهقاً ؛ ولذلك فليلزم كل إنسان أدبه وقدره الذى شاءه الله - سبحانه وتعالى - له ؛ فلا يفكر فى أخذ فرصة تزيد من رهقه.

ونحن نرى فى البشر مَنْ يستخدم صاحب القوة الجسدية أو قدرة تصويب السلاح ؛ ليُرهب غيره ، وقد ينجح فى ذلك مرة أو أكثر ، ثم ينقلب هذا (الفتوَّة) أو ذلك القاتل المأجور على مَنْ استأجره.

إذن : فلا بد أن يحترم كل إنسان قَدَرَ الله - سبحانه وتعالى - فى نفسه ، وألاَّ يأخذ فرصة من جنس آخر ؛ يظن أنها تزيده فى دنياه شيئاً ، لكنها فى الواقع ستزيده تعباً وتزيده رهقاً.

ولذلك نجد الحق - سبحانه وتعالى - يقول عنهم : ﴿ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ [2] ..(١٢٨) ﴾ [الأنعام]

---

(١) الأكتع : مَنْ رجعت أصابعه إلى كَفّه ، وظهرت مفاصل أصول أصابعه. و«أكتع» يجىء فى التوكيد إتباعاً ، فيقال : جاء الجيش أجمعَ أكتعَ. [المعجم الوسيط : مادة (كتع)].

(٢) المثوى : مكان الإقامة والاستقرار. والجمع : المثاوى. قال تعالى : ﴿ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١) ﴾ [آل عمران] [اللسان : مادة (ثوى)].

وهكذا نرى أن مصير الاستمتاع بقوة الجن هو النار للإنس الذى استخدم الجن ، وللجن الذى أغوى الإنس .

ثم يعرض لنا الحق - سبحانه وتعالى - قضية أخرى فى هذه المسألة ؛ فيقول سبحانه : ﴿ الْأَخِلَّاءُ [1] يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف]

والأخلاء : هم الجماعة التى يجمع أفرادها صحبة ومودّة ، ويتخلّل كل منهم حياة الآخر . وأنت تجد الناس صنفين :

أناساً اتخذوا الخُلَّة [2] فى الله تعالى، فيذهبون إلى المساجد ، ويستذكرون العلم ، ولا يأكلون إلا من حلال ، ويقرأون القرآن ، وإن همَّ واحد منهم بمعصية وجد من صديقه ما يردّه عن المعصية ، ويحجّون إلى بيت الله الحرام ، ويعتمرون ، وتدور حياتهم فى إطار حديث المصطفى ﷺ : «رجلان تحابّا فى الله اجتمعا عليه وتفرّقا عليه » [3] وهذا لون من الخُلَّة .

واللون الآخر يضم أناساً يساعد بعضهم البعض على المعصية ، ويشربون الخمر ، ويلعبون الميسر ، ويفعلون كل المعاصى ، فإذا جاء يوم القيامة يقابلون حكم الله تعالى : ﴿ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ .. (٢٥٤) ﴾ [البقرة]

فلا خُلَّة إلا خُلَّة اللقاء فى الله تعالى ، فإذا التقى الأخلاء فى الله تعالى فرحوا ببعضهم ؛ لأن كلاً منهم حمى أخاه من معصية ، أما من كانوا

---

(١) الأخلاء : جمع (خليل) وهو الصديق . قال تعالى : ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا .. (١٢٥) ﴾ [النساء] .
وقال تعالى - حكاية عن الكافرين يوم القيامة : ﴿ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) ﴾ [الفرقان] .
[اللسان : مادة (خ ل ل)] .

(٢) الخُلَّة : الصداقة والمحبة . والخِلُّ : الوُدُّ والصديق . [اللسان : مادة (خ ل ل)] .

(٣) عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه مُعلّق فى المساجد ، ورجلان تحابّا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه» أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٣١) والبخارى فى صحيحه (٦٦٠) .

يجتمعون فى الدنيا على المعصية ، فكل منهم يلعن الآخر ، ويصدق حكم الله سبحانه وتعالى : ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف]

ولذلك نجد الحوار بين الذين استضعفوا والذين استكبروا ، ونجد الحق سبحانه وتعالى يأتي لنا بهذا الحوار في القرآن : ﴿ فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ .. (٢١) ﴾ [إبراهيم]

فيرد الآخرون : ﴿ لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا [1] أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ [2] .. (٢١) ﴾ [إبراهيم]

وبعد ذلك يأتي اعتراف الشيطان الذى يقول عنه الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ [3] إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ [4] .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

---

(١) الجَزَع : نقيض الصبر . قال تعالى عن الإنسان : ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) ﴾ [المعارج] . [اللسان : مادة (جزع)].

(٢) محيص : مَهْرَب . قال تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (١٢١) ﴾ [النساء] . [اللسان : مادة (حيص)].

(٣) السلطان : سلطان القهر فى قهرهم على اتباعه . ويطلق السلطان أيضاً على الحجة والبرهان . يقول تعالى عن سليمان وهو يهدد الهدهد : ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١) ﴾ [النمل].

(٤) مصرخكم : مغيثكم . والصريخ : المغيث . وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ .. (١٨) ﴾ [القصص] . وقال تعالى : ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣) ﴾ [يس] . [اللسان : مادة (صرخ)].

وهذا الحوار هو الذى يكشف لنا ما سوف يحدث يوم القيامة ، ونجد الحق سبحانه يقول :

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ .. (١٦) ﴾ [الحشر]

هذه كلها لقطات من مشاهد يوم القيامة ، جاءت فى خواطرنا ونحن نتناول قول الحق سبحانه : ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩) ﴾ [يونس]

هكذا يعلن كل مَنْ عُبد من الملائكة أو الرسل أو الأصنام ، وبذلك تتم فضيحة الذين عبدوهم من دون الله سبحانه ويأخذون طريقهم إلى النار .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول : ﴿ احْشُرُوا (١) الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) ﴾ [الصافات]

ولننتبه هنا إلى أن الأزواج متقدمون فى الإغواء والتوجيه إلى الشر ، قبل الأعداء ؛ لأن الزوج أو الزوجة قد يكون هو الشيطان الملازم الذى يُهيِّىء الانحراف إلى ما يريد (٢) .

ونجد الحق سبحانه يقول بعد ذلك : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) ﴾ [الصافات]

ومثلها مثل قوله سبحانه : ﴿مَكَانَكُمْ﴾ نفهم من ذلك أنهم كانوا معاً فى الدنيا وهى دار الاختيار ، وهم الآن فى دار جبرية الاقتدار ؛ لذلك يقول الحق سبحانه :

---

(١) احشروا : اجمعوا . والحشر : جمع الخلائق يوم القيامة للحساب . [اللسان : مادة (حشر)] .

(٢) يقول سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ .. (١٤) ﴾ [التغابن] .

﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨)﴾ [الصافات]

أى: كنتم تستعملون قوتكم ؛ لتجعلونا نتبعكم ، فلا يظنن ظانٌّ أنها قوة البطش فقط ، أو قوة التذليل ، بل المقصود بذلك أىّ قوة ، حتى وإن كانت قوة الإغواء.

إذن: فالمواقف مفضوحة ، وهذا لون ومقدمة من ألوان العذاب ؛ ليبين الله - سبحانه وتعالى - صدقه فى قوله: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ[1] (٦٧)﴾ [الزخرف]

وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ ليبين لنا كيف يختار الإنسان خليله فى الدنيا ، فلا يختار الخليل الذى يزيِّن الخطأ والمعصية ، بل يختار الذى يعينه على الطاعة.

ويذكر الحق سبحانه موقفاً من مواقف يوم القيامة فيقول سبحانه:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ[2] نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (٢٩)﴾ [فصلت]

هكذا يكون حال الذين ضلُّوا يوم القيامة، يتبرأون ممن أوقفهم هذا الموقف بل يطلبون من أضلهم لإيقاع العذاب بهم بأنفسهم ؛ لذلك يقول الحق

---

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : «لو أن رجلين تحابا فى الله ، أحدهما بالمشرق ، والآخر بالمغرب لجمع الله تعالى بينهما يوم القيامة يقول : هذا الذى أحببته فىَّ» ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/ ١٣٤) وعزاه للحافظ ابن عساكر.

(٢) عن على بن أبى طالب أن ﴿اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا .. (٢٩)﴾ [فصلت] فى الآية المقصود بهما : إبليس أول من عصى الله جحوداً لأمره ، وابن آدم الذى قتل أخاه فكان أول من سن ارتكاب الكبائر والمعاصى فى الأرض. ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٩٨).

سبحانه فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها: ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا[1] عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩)﴾ [يونس]

هكذا يتبرأ الملائكة والرسول الذى عُبِدَ ، وحتى الأصنام ، من الذين عَبَدُوهم فى الدنيا .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا[2] كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠)﴾

وقول الحق سبحانه : ﴿هُنَالِكَ﴾ يعنى: فى هذا الوقت ، أو فى هذا المكان. والزمان والمكان هما ظَرْفَا الحدث ؛ لأن كل فعل يلزم له زمان ومكان ، فإن كان الزمان هو الغالب ، فيأتى ظرف الزمان ، وإذا كان المكان هو الغالب فيأتى ظرف المكان.

وجاءت ﴿هُنَالِكَ﴾ أيضاً فى قصة سيدنا زكريا عليه السلام ، إذ يقول الحق سبحانه: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ .. (٣٨)﴾ [آل عمران]

أى: فى ذلك الوقت الذى قالت فيه مريم - رضى الله عنها - قولةً أدَّت بها قضية اعتقادية إيمانية لكفيلها ، وهو سيدنا زكريا عليه السلام وهو الذى يأتى لها بالطعام ، وشاء لها الحق - سبحانه وتعالى - أن تعلِّمه هى. يقول

---

(١) إنْ كُنَّا : أى : ما كنا. فإنْ هنا للنفى ، وتدخل على الجملة الاسمية نحو قوله تعالى: ﴿إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ... (٢٠)﴾ [الملك ] وتدخل على الجملة الفعلية نحو قوله تعالى : ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ .. (١٠٧)﴾ [التوبة ].

(٢) ﴿تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ .. (٣٠)﴾ [يونس ] : تذوق جزاء ما عملت وقدَّمت. وقيل : تختبر. وقيل : تتبع ، أى : تتبع كل نفس ما قدَّمت فى الدنيا. وقرأ حمزة والكسائى «تتلو» أى : تقرأ كل نفس كتابها الذى كُتب عليها. [تفسير القرطبى ٤/ ٣٢٦١] وابن كثير [٢/ ٤١٦].

سبحانه: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا .. (٣٧) ﴾ [آل عمران]

والرزق ما به انتفع ، وكان زكريا - عليه السلام - يكفلها بكل شيء تحتاجه ، لكنه فوجيء بوجود رزق لم يأت هو به ؛ بدليل أنه قال: ﴿ أَنَّىٰ[1] لَكِ هَٰذَا .. (٣٧) ﴾ [آل عمران]

وهذه ملحظية ويقظة الكفيل حين يجد مكفوله يتمتع بما لم يأت به. وهذه هي قضية «من أين لك هذا ؟» ، وهي قضية الكفيل العام للمجتمع حين يرى واحداً يتمتع بما لا تؤهله له حركته في الحياة ، وبذلك يكتشف مختلس الانتفاع بما يخص الغير دون أن يَعرف كافله ، ولو أن كافله أصرَّ على معرفة من أين تأتي مصادر دخله ؛ لَحَمَى المجتمع من الفساد.

وانظر إلى جواب مريم عليها السلام على قول زكريا عليه السلام الذي ذكره رب العزة سبحانه: ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا .. (٣٧) ﴾ [آل عمران]

قالت مريم: ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ .. (٣٧) ﴾ [آل عمران]

ثم تعلّل الجواب: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ[2] .. (٣٧) ﴾ [آل عمران]

قالت ذلك ؛ لأنه وجد عندها أشياء لا توجد في مثل هذا الوقت من

---

(١) أنّى لك هذا؟ : كيف ومن أين لك هذا ؟

(٢) لله في عطائه رزق بحساب ، ورزق بغير حساب ، فرزق الحساب بقدر ما تقدمه من خير وعمل صالح ، يُقاس العطاء بمقياس العدل الإلهي . أما الرزق الذي بغير حساب فهو رزق الذين وهبوا كلياتهم إلى الكل المطلق ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) ﴾ [الأنعام] . إذن : فكون الرزق هنا بلا حدٍّ مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢) ﴾ [البقرة] لأن الإمام العارف قال : من دخل على الله بحساب أعطاه بحساب ، ومن دخل عليه بغير حساب أعطاه بغير حساب .

السنة ، فعجَبُ سيدنا زكريا عليه السلام - إذن - كان من أمرين اثنين : شيء لم يأت هو به ، وشيء مخالف للفترة التي هو فيها ، كأنْ وجد عندها عنباً في زمن غير أوانه ، أو وجد برتقالاً في غير أوانه [1] ، وسؤاله كان دليل يقظة الكفيل ، وإجابتها كانت قضية إيمانية عقدية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ من يشاء بغير حساب ..(٣٧)﴾ [آل عمران]

وما دام ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ - سبحانه وتعالى - ما طرح حسابك أنت للأشياء في ضوء هذه القضية .

ولكن هل غفل سيدنا زكريا - عليه السلام - عن قضية الإيمان بأن الله تعالى يرزق مَنْ يشاء بغير حساب ؟

فنقول : لا ، لم يغفل عنها ، ولكنها لم تكن في بؤرة شعوره حينئذ ؛ فجاءت بها قولة السيدة مريم لتذكر بهذه القضية ، وهنا تذكَّر زكريا نفسه ، كرجل بلغ من الكبر عتياً [2] ، وامرأته عاقر ، وما دام الله سبحانه يرزق من يشاء بغير حساب ، فليس من الضروري أن يكون شاباً أو تكون زوجته صغيرة لينجب ، فجاء الحق معبراً عن خاطر زكريا في قوله :

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ .. (٣٨)﴾ [آل عمران]

أي : في هذا الوقت أو ذلك المكان ، أو في الاثنين معاً زماناً ومكاناً ، وهنا جاءته الإجابة من ربه سبحانه وتعالى : ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ..(٩)﴾ [مريم]

---

(١) ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا .. (٣٧)﴾ [آل عمران] قال مجاهد وعكرمة وآخرون : يعني : وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف . وهذا فيه دلالة على كرامات الأولياء [تفسير ابن كثير : ١/ ٣٦٠].

(٢) عتا الشيخ عتياً وعِتياً وعُتياً : كَبِرَ وأسنَّ . [اللسان : مادة (عتى)].

وقد جاء الحق سبحانه بهذه القضية ليمنع أيَّ ظانٍّ من أن يسيء الظن بعفة مريم عليها السلام ؛ لأنها فى موقف اللجوء فأنطقها الحق بقوله : ﴿يرزق من يشاء بغير حساب .. (٣٧)﴾ [آل عمران]

وما دام الرزق بغير حساب وفى غير وقته وغير مكانه وبلا سبب وبغير علم كافلها ، فعند ذلك تحقق اللجوء إلى الله بالقبول الحسن الذى دعت به امرأة عمران :

﴿وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم (٣٦) فتقبلها ربها بقبول حسن[1] وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا ..(٣٧)﴾ [آل عمران]

ويطبقها زكريا عليه السلام على نفسه ، ثم تتعرض هى لها ، حين يبشِّرها الحق سبحانه بغلام اسمه المسيح عيسى ابن مريم - عليهما السلام .

فهى ستلد من غير أن يمسسها ذكر ، وهى تعلم أن الأسباب جارية فى أنه لا يوجد تناسل إلا بوجود ذكر وأنثى ، وشاء الحق سبحانه أن يقدِّر لها أن تلد دون هذه العملية ، فجاء سبحانه بتلك المقدمة على لسانها ﴿إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ..(٣٧)﴾ [آل عمران]

وحين تساءلت: ﴿رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر .. (٤٧)﴾ [آل عمران]

جاءتها الإجابة بأن اسمه المسيح عيسى ابن مريم ، يقول سبحانه : ﴿إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم ..(٤٥)﴾[آل عمران]

فبيقظتها الإيمانية فطنت إلى أن هذا الطفل سينسب إلى أمه ؛ فعرفت أن

---

(١) تقبُّل الشيء وقبوله دليل على أخذ الشيء برضا ، فأنت قد تأخذ بكُرْه أو على مضض ، أما أن تتقبل فذلك يعني الأخذ بقبول ورضا . أما القبول الحسن فهو زيادة في الرضا .

أباه ملغى ؛ وأدركت أن هذا الولد لن يأتى نتيجة زواج ولو فيما بعد ، وبذلك كان عليها أن تعود إلى القضية الإيمانية التى ذكرتها : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ من يشاء بغير حساب (٣٧)﴾ [آل عمران]

وهنا في الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه : ﴿هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت .. (٣٠)﴾ [يونس]

أى : فى ذلك الوقت تُختبر كل نفس ، وترى هل الجزاء طيب أم لا؟ فإن كانت قد عملت الشر ؛ فستجد الجزاء شرّاً .

إذن : فالإنسان وقت النتائج يختبر نفسه بما كان منه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿وردوا إلى الله مولاهم[1] الحق .. (٣٠)﴾ [يونس]

وكأنهم كانوا فى الدنيا عند مولـًى آخر غير الإله الحقّ سبحانه ، والمولى غير الحق هو الشريك أو الشركاء الذين اتخذهم بعض الناس مَوالِيَ لهم ، وهنا فى اليوم الآخر يُردُّون إلى الإله الحق والمولى الحق سبحانه .

وكلمة «رُدُّوا إلى كذا» لا تدل على أنهم كانوا مع الضِّدِّ ، وجاءوا له ، بل تدل على أنهم كانوا معه أولاً ، ثم ذهبوا إلى الضِّدِّ ، ثم رُدُّوا إليه ثانياً ، مثل قول الحق سبحانه عن موسى عليه السلام :

﴿فرددناه إلى أمه .. (١٣)﴾ [القصص]

فدلّت على أنه كان مع أمه ، ثم فارقها ، ثم رُدَّ إليها .

وقول الحق سبحانه هنا : ﴿وردوا إلى الله مولاهم[2] الحق .. (٣٠)﴾ [يونس]

---

(١) المولى : النصير والولىّ الذى يلى عليك أمرك ، ولا يليك إلا من هو قريب منك ، وهو الناصر والمعين الذى تفزع إليه فى شدائدك .

(٢) قال تعالى هنا : ﴿وردوا إلى الله مولاهم الحق .. (٣٠)﴾ [يونس] فأثبت أن الله هو مولاهم الحق ، وقال فى آية أخرى : ﴿وأن الكافرين لا مولى لهم .. (١١)﴾ [محمد] . فهو سبحانه ليس مولى لهم فى النصرة والمعونة ، بل هو مولى لهم فى الرزق وإدرار النعم .

أى: أنهم كـانوا مع الله أولاً ، ثم أخـذهم الشـركـاء ، وفى هذا اليـوم الآخر يرجعون لربهم سبحانه.

والإنسان يكون مع ربّه أولاً بالفطرة التكوينية المؤمنة ، ثم يتجه به أبواه إلى المجوسية أو أىّ ديانة أخرى تحمل الشرك بالله تعالى [1]، وهم فى ظل تلك الديانات المشركة ، كانوا عند مولًى وسيِّد وآمر ومشرِّعٍ ، لكنه مَوْلَى غير حق ؛ لأن الحق هو الثابت الذى لا تدركه الأغيار.

﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ . . (٣٠)﴾ [يونس]

أى: عـرفت كل نفس مـا فـعلت ، ويُعـرف كل إنسـان بفـضيـحتـه فى جزئيات ذاته ، وكذلك الفضيحة العامة لكل إنسان أشرك بالله سبحانه.

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠)﴾ [يونس]

أى: أن الآلهة التى عبدوها لا تتعرف إلى أمكنتهم ومواقعهم ، وأنهم فى خطر ؛ فتأخذ بأيديهم ؛ لأن هذه الآلهة لا علم لها بهم ، ولو أن هذه الآلهة التى كـانوا يعبدونها من دون الله - سبحانه - على شىء من الحق ؛ ووجدوهم فى مـأزق ؛ لكان يجب أن يدافـعوا عنهم ، لكنهم لم يعـرفـوا أماكنهم ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ . . (٣٠)﴾ [يونس]

أى: ما كانوا يكذبونه كذباً متعمداً.

وبعـد أن كشف - سبـحانه - المسألة ومـا سـوف يحدث فى الآخـرة ،

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : «ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء؟ ثم قال : ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ . . (٣٠)﴾ [الروم]. متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٧٥) ومسلم (٢٦٥٨).

وخوَّفهم وبشَّع لهم ما سوف ينتظرهم من مصير إنْ ظلوا على الكفر ؛ لعلَّهم يرتدعون[1] ، ويتذكرون ضرورة العودة إلى عبادة الإله الحق سبحانه ، يأتى الحق سبحانه وتعالى بما يعيد إليهم رُشْدَ الإيمان فى نفوسهم ، فيقول :

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ[2] فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

أى : أن الحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ : اسألهم هذا السؤال ، ولا يسأل هذا السؤال إلا مَنْ يثق فى أن المسئول لو أدار فى ذهنه كل الأجوبة ، فلن يجد جواباً غير ما عند السائل .

ومثال ذلك من حياتنا - ولله المثل الأعلى - إن جاء لك من يقول : أبى يهملنى ، فتمسك به ، وتسأله : من جاء لك بهذه الملابس وذلك القلم ويُطعمك ويُعلِّمك ؟ سيقول لك : أبى .

وأنت لا تسأله هذا السؤال إلا وأنت واثق أنه لو أدار كل الأجوبة فلن يجد جواباً إلا الذى تتوقعه منه ، فليس عنده إجابة أخرى ؛ لأنك لو كنت تعرف أنه سوف يجيبك إجابة مختلفة لما سألته فكأنك ارتضيت حكمه هو فى المسألة .

---

(١) الارتداع : الكف عن الشىء . وترادع القوم : ردع بعضهم بعضاً ، فزجروهم وكفوهم عن المعاصى وإيذاء الناس [وانظر : لسان العرب - مادة ردع] .

(٢) فى الآية منطق الفطرة بالتوحيد ، فالكافر إذا سئل عن خلق الكون ، وعن تدبير الأمر ، وعن عجائب الآيات لا يجد جواباً إلا أن يقول بدافع الفطرة : الخالق هو الله ، والمدبر هو الله .

والحق سبحانه وتعالى قال فى بداية هذه الآية الكريمة : ﴿قُلْ﴾ كما أنزل عليه مثيلاتها مما بُدِىء بقوله سبحانه : ﴿قُلْ﴾ مثل قوله سبحانه :

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾ [الصمد]

وهذا ما اقتضاه خطاب الحق سبحانه دائماً للخَلْق ، ويختلف عن خطاب الخَلْق للخَلْق ، فحين تقول لابنك : «اذهب إلى عمِّك ، وقُلْ له كذا» . فالابن يذهب إلى العمِّ ويقول له منطوق رسالة الأب ، دون أن يقول له : «قُلْ» ، أما خطاب الحق سبحانه للخلق ، فقد شاء سبحانه أن يبلِّغنا به رسوله ﷺ كما نزل ﴿قُلْ﴾ فالرسول ﷺ أمين فى البلاغ عن الله تعالى ، لا يترك كلمة واحدة من الوحى دون أن يبلِّغها للبشر ، وما دام الحق سبحانه وتعالى هو الذى أمره ، فهو يبلغ ما أُمِرَ ، حتى لا يحرم آذان خلق الله تعالى من كل لفظ صدر عن الله سبحانه .

وكذلك أمر الحق - سبحانه - هنا لرسوله ﷺ بأن يقول : ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .. (٣١)﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن الرزق هو ما يُنتفع به ، والانتفاع الأول مُقوِّم حياة ، والثانى تَرَفٌ أو كماليات حياة ، والرزق الذى هو أصل الحياة هو ماء ينزل من السماء ، ونبات يخرج من الأرض [1] .

وهكذا قال الحق سبحانه السؤال والإجابة معروفة مقدَّماً ، فلم يَقُلْ لرسوله ﷺ : «أجبْ أنت» بل ترك لهم أن يجيبوا بأنفسهم .

وكذلك جاء الحق سبحانه بسؤال آخر : ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ .. (٣١)﴾ [يونس]

---

(١) وهذا الرزق هو ما ذكره رب العزة فى قوله تعالى : ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢)﴾ [عبس] .

والسمع والبصر هما السيدان لملَكَات الإدراك ؛ لأن إدراك المعلومات[١] له وسائل متعددة ، إنْ أردتَ أنْ تُدرك رائحة ؛ فبأنفك ، وإنْ أردتَ أنْ تدرك نعومة ؛ فيلمسك وبيشرتك ، وإنْ أردتَ أن تدرك مذاق شيء فبلسانك ، وإنْ أردت أن تتكلم فبأجهزة الكلام وعمدتها اللسان ، وإنْ أردتَ أن تسمع فبأذنك .

وكذلك تتجلّى لك المرائى[٢] بعينيك ، ثم تأتى إدراكات متعددة من الحواس ؛ لتُكوِّن أشياء نسميها الخميرة ، توجد منها القضية العقلية الأخيرة ، فالطفل أمام النار يجد منظرها جميلاً جذاباً ، لكن ما إن يلمسها حتى تلسعه ؛ فلا يقرب منها أبداً من بعد ذلك ؛ لأنه اختبرها بحواسه فارتكزت لديه القضية العقلية وهى أن هذه نار محرقة ، واستقر هذا لديه يقيناً .

وهكذا تكون الإدراكات الحسية إدراكات متعددة تصنع خميرة فى النفس تتكون منها الإدراكات المعنوية .

إذن : فوسائل العلم للكائن الحى هى الحواس ، وهذه الحواس تعطى العقل معطيات تتغرز فيه لتستقر من بعد ذلك فى الوجدان ؛ فتصبح عقائد .

إذن : فمراحل الإدراك هى : إدراك حسىٌّ ، وتفكُّر عقلىٌّ ، فانتهاء عَقَدىٌّ ؛ ولذلك نسمِّى الدين عقيدة .

أى : أنك عقدت الشيء فى يقينك بصورة لا تحلُّه بعدها من جديد لتحلّله ، فهذا يُسمى عقيدة .

---

(١) الإدراك يعطى الوجدان ، والوجدان يعطى الاختيار ، والاختيار يعطى الفكر والتأمل ، وعن طريق الفكر المتأمل يكون توحيد الله .

(٢) رأى يرى فهو راء ، وما يقع عليه البصر فهو مرئىّ ، والجمع : مَرَائى .

ولذلك حينما أراد الله - سبحانه وتعالى - أن يقصَّ علينا مراحل الإدراك في النفس الإنسانية ؛ ليربي الإنسان معلوماته ، قال الحق سبحانه : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون (٧٨) ﴾ [ النحل ]

لذلك يقال : «كما ولدته أمه» ، أي : لم يُعْطَ القدرة على استخدام حواسِّه بعد ، ثم يجعل له الحق سبحانه الحواس ، ويجعله قادراً على استخدامها .

ولم يذكر بقية الحواس ، بل جاء بالسيدين ، وهما السمع والبصر ؛ لأن آيات الكون تحتاج إلى الرؤية ، وإبلاغ الرسل يحتاج للسماع ، وهما أهم آلتين في البلاغ ، فأنت ترى بالعين آيات الكون ومعجزات الرسل ، وتسمع البلاغ بمنهج الله سبحانه وتعالى من الرسل .

وقد لفتنا الإمام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - إلى العجائب فقال : « اعجبوا لهذا الإنسان ، ينظر بشحمٍ ، ويتكلم بلَحْمٍ ، ويسمع بعظم ، ويتنفس من خَرْمٍ »[(١)] .

فالصوت يطرق عظمة الأذن ، ويرنّ على طبلتها ، ونرى بشحمة[(٢)] العين ، وننطق بلحمة اللسان .

وأضاف البعض : «ونشمّ بغضروف ، ونلمس بجلد ، ونفكر بعجين» . فالإنسان يولد وكأن مخه قطعة من العجين التي تعمل في استقبال المعلومات من الكون وتخزينها فيه ، وهي التي ستكون ركيزة لتشكيل الفؤاد من بعد ذلك .

---

(١) ذكره الشريف الرضي في كتابه «نهج البلاغة» (٤/ ٤) طبعة مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت .

(٢) شحمة العين : مُقلتها ، وقيل : حدقتها أو ما تحت الحدقة . أما شحمة الأذن فهو ما لان من أسفلها ، وهو مُعلَّق القُرط . [ اللسان : مادة (شحم) ] .

وجاء قول الحق سبحانه هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها بوسيلتين من وسائل الإدراك ، وترك بقية الوسائل الثلاث الأخرى الظاهرة ، مع أن العلم الحديث حين تكلم عن وظائف الأعضاء ، احتاط للأمر وقرر أن هذه الحواس هى الحواس الخمس الظاهرة .

وهذا يعنى أن هناك حواساً أخرى غير هذه سيكشف عنها ، وهى حواس لم يكن القدماء يعرفونها ، مثل حاسة البَيْنَ بَيْنَ ، التى نفرق بها بين أنواع الأقمشة والأوراق وغيرها ، وكثافة هذا النوع من ذاك ، وهذه الحاسة توجد بين لمستين من إصبعين متقاربين (١) .

وكذلك حاسة العَضَل التى تزن ثقل الأشياء ، وتعرف حين تحمل ثقلاً ما مدى الإجهاد الذى يسببه لك ، وهل يختلف عن إجهاد حَمْل ثقلٍ آخر .

وحين نظر العلماء في معانى الألفاظ قالوا : «النظائر حين تخالف فلا بد من علّة للمخالفة» فالسمع آلة إدراك ، والبصر آلة إدراك ، فلماذا قال الحق سبحانه فى آلة الإدراك «السمع» ، وقال فى الآلة الثانية «الإبصار» ؟ ، ولماذا جاء السمع بالإفراد ، وجاء الإبصار بالجمع ، ولم يأتْ بالاثنين على وتيرة (٢) واحدة ؟

فنقول : إن المتكلم هو الله تعالى ، وكل كلمة منه لها حكمة وموضوعة بميزان ، وأنت حين تسمع ، تسمع أى صوت قادم من أى مكان ، لكنك بالعين ترى من جهة واحدة ، فإنْ أردتَ أن ترى ما على يمينك فأنت تتجه

---

(١) وهذا غير حاسة اللمس التى ندرك بها نعومة أو خشونة هذا القماش أو ذاك ، فهذا يُدرك بحاسة اللمس وعادة يكون هذا بإمرار كفِّ اليد على القماش ، أما إدراك (تخانة) هذا القماش أو ذاك فيكون بإدراكه بهذه الحاسة .

(٢) الوتيرة : الطريقة . مأخوذة من التواتر أى : التتابع ، وجرَت الأشياء على وتيرة واحدة : أى : بنفس الصفة والطريقة . [اللسان : مادة (وتر)] .

بعينيك إلى اليمين ، وإنْ أردت أن ترى ما خلفك ، فأنت تغيِّر من وقفتك ، فالأذن تسمع بدون عمل منك ، لكن البصر يحتاج إلى عمليات متعددة ؛ لترى ما تريد.

وأيضاً فالسمع لا اختيار لك فيه ، فأنت لا تستطيع أن تحجب أذنك عن سماع شيء ، أما الإبصار فأنت تتحكم فيه بالحركة أو بإغلاق العين.

وجاء الحق - سبحانه وتعالى - بالسمع أولاً ؛ لأن الأذن هي أول وسيلة إدراك تؤدي مهمتها في الإنسان ، أما العين فلا تبدأ في أداء مهمتها إلا من بعد ثلاثة أيام إلى عشرة أيام غالباً.

وهنا يقول الحق سبحانه: **﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ .. (٣١)﴾** [يونس]

والحق سبحانه يملكها ؛ لأنه خالقها وهو القادر على أن يصونها ، وهو القادر سبحانه على أن يُعَطِّلها ، وقد أعطانا الحق مثالاً لهذا في القرآن فقال عن أصحاب الكهف : **﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١)﴾** [الكهف]

فَعَطَّل الله سبحانه أسماعهم بأن ضرب على آذانهم ، فذهبوا في نوم استمر ثلاثة قرون من الزمن وازدادوا تسعاً.

كيف حدث هذا ؟ .. إن أقصى ما ينامه الإنسان العادي هو يوم وليلة ، ولذلك عندما بعثهم الله تساءلوا فيما بينهم : **﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ..(١٩)﴾** [الكهف]

ولكن هيئتهم لم تكن تدل على هذا ، فإن شعورهم قد طالت جداً ، بل إن لونها الأسود قد تبدل وأصبحوا شيباً وكهولاً ، ولذلك قال الحق سبحانه : **﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ..(١٨)﴾** [الكهف]

ونلحظ هنا ملحظاً يجب الانتباه إليه ، ففى هذه الآية الكريمة يقول الحق سبحانه: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ .. (٣١)﴾ [يونس]

بينما يقول فى آية أخرى في سورة السجدة: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ .. (٩)﴾ [السجدة]

ولا بد أن ننتبه إلى الفارق بين «الخَلْق» و«الجَعْل» ، و«المُلْك» ، فالخلق قد عرفنا أمره ، وملكية كل شيء لله - تعالى - أمر مُلْزِمٌ فى العقيدة ، ومعروف ، أما «الجَعْل» ، فهو توجيه ما خلق إلى مهمته.

فأنت تجعل الطين إبريقاً ، والقماش جلباباً ، هذا على المستوى البشرى ، أما الحق سبحانه وتعالى فقد خلق المادة أولاً ، ثم جعل من المادة سمعاً وبصراً ، وزاد من بعد ذلك ﴿أَمَّن يَمْلِكُ﴾ ، فمن خَلَقَ هو الله تعالى ، ومن جَعَلَ هو الله تعالى ، ومن مَلَكَ هو الله تعالى .

وهو سبحانه ينبهنا إلى ذلك ، فالأشياء النافعة لابن آدم يخلقها الله سبحانه ، ويجعلها ، ثم يُملِّكها له.

أما ذات الإنسان وأبعاضه من سمع وبصر وغيرهما وإن كانت قد خُلقت فى الإنسان ، وجُعلت له للانتفاع بها ، ولكنها ستظل ملْكاً لله ، يبقيها على حالها ، أو يخطفها أو يصيبها بآفة ، أو يعطلها[1].

إذن : فهى خُلقت لله ، وجُعلت من الله ، وتظل مملوكة لله ، ويُصيِّرها كيف يشاء ، فدقات القلب والحب والكراهية والأمور اللاإرادية التى تعمل لصالح الإنسان هى مملكة الله .

---

(١) يقول سبحانه : ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾ [البقرة].

والحق سبحانه - على سبيل المثال - جعل لكلٍّ حيوان جلداً ؛ ننتفع به وندبغه إلا جلدين اثنين: جلد الإنسان وجلد الخنزير ، وقد حُرِّم استخدام جلد الإنسان ؛ لكرامته عند خالقه ، وحُرِّم استخدام جلد الخنزير ؛ ليدلَّ على حرمته ونجاسته .

وعلينا أن ننتبه إلى أن الحق سبحانه قد خَلَقَ وجَعَلَ ومَلَكَ ، ودليل ملكية الحق - سبحانه وتعالى - أنه حَرَّم الجنة على المُنتحر [1] ؛ لأنه لا يأخذ الحياة إلا واهبُ الحياة ، فأنت أيها الإنسان لستَ ملْكَ نفسك. ولا عذر لأحد ما دام قد وصله هذا البلاغ ، وعليه أن يستوعبه أما من لا يستوعب ؛ فيلقى مصيره.

لذلك فإنه سبحانه هو الذى رزق ، وهو - سبحانه - الذى يملك.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ .. ﴿٣١﴾﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن لكل كائن في الوجود حياة تناسبه ، بدليل قول الحق سبحانه : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ .. ﴿٨٨﴾﴾ [القصص]

وما دام كل شيء سيأتى له وقت يهلك فيه ، فمعنى ذلك أن لكل شيء حياة ، إلا أن حياتنا نحن فى ظاهر الأمر عبارة عن الحس والحركة ، والإنسان يأكل الخضروات والخبز والفاكهة ، ومن هذه المأكولات وغيرها يكوِّن الجسمُ الحيوانات المنوية فى الرجل ، والبويضات في المرأة ، ومنهما يأتى الإنسان ، وكذلك يخرج الكتكوت من البيضة المخصَّبة ؛ لأن البيضة

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « من قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يتوجأ بها فى بطنه فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن شرب سماً فقتل نفسه فهو يتحساه فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٧٧٨) ومسلم (١٠٩) واللفظ لمسلم .

غير المخصبة لا تُخرِج كتكوتاً ؛ فهى بدون حياة ؛ ولذلك لا يتكون منها جنين ، فهناك فرق بين قابلية الحياة ، وبين الحياة نفسها.

وكذلك نواة التمرة ، إذا ما ألقيتْ دون أن توضع فى الأرض ، فلن تكون نخلة أبداً ، ولكن إذا ما زُرعتْ فى الأرض ، ووجدت لها البيئة المناسبة ؛ خرجَتْ نخلة.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ ..(٣١) ﴾ [يونس]

والتدبير هو عملية الإدارة لأى شىء ؛ حتى يؤدى مهمته ، وبالله من يُدير قلبك ؟ ومن يدير حركة أمعائك ؟ لتستخلص من الطعام ما يفيدك ، ثم تخرج ما لا يفيدك.

إياك أن تقول: إننى أنا الذى أدير ذلك؟ ونقول: كنت طفلاً فى مرحلة الطفولة ، فهل كنت تدير حركة قلبك أو أمعائك ؟ ومَنْ الذى يدير حركة رئتيك ؟ إن الذى يديرها هو خالقها ؛ لذلك اطمئنوا على حركة أجهزتكم التى لا دخل لكم فيها ؛ لأن الذى خلقها فيكم قيُّوم لا تأخذه سنة[1] ولا نوم ، ولا يؤوده حفظ ذلك[2].

ويجيب مَنْ يسألهم الرسول ﷺ على كل تلك الأسئلة - بأمر الله تعالى - الإجابة التى حددها الله سبحانه سلفاً ﴿ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ .. (٣١) ﴾ [يونس]

إذن: أما كان يجب أن نرهف الآذان ، ونُعْمل الأبصار ؛ لنرى قدرة الله سبحانه الذى وهب لنا كل تلك النعم من رزق ، وسمع ، وبصر ، وإحياء ، وإماتة ، وإحياء من ميت ، وتدبير الأمر كله ؟

---

(١) السنة : النعاس من غير نوم . وقيل : السنة نعاس يبدأ فى الرأس ، فإذا صار إلى القلب فهو نوم . [اللسان مادة : وسن].

(٢) لا يؤوده حفظ السموات والأرض : أى : لا يعجزه سبحانه ولا يثقل عليه . يقال : آده الأمر : بلغ منه المجهود والمشقة . [اللسان مادة : أود].

أما كان يجب أن نقول: يا مَنْ خَلَقْتَنَا ماذا تنتظر منَّا ؛ لنعمُر الكون الذى أوجدتنا فيه ؟ فكيف - إذن - يتجه البعض بالعبادة لغير الله تعالى ؛ لشمس أو قمر ، أو ملائكة ، أو نبىّ ، أو صنم ؟ كيف ذلك والعبادة معناها إطاعة العابد للمعبود فيما يأمر به ؟ وهل هناك إله بغير منهج يأمر به عباده ، ومن عبد الشمس هل كلَّفته بشىء ؟ .. لا .

إذن: يتساوى عندها مَنْ عبدها ، ومَنْ لم يعبدها ، وفى هذا نقض لألوهية كل معبود غير الله تعالى.

ولذلك يُنهى الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿أفلا تتقون ..(٣١)﴾ [يونس]

فما دام الله سبحانه هو الذى خلق كل ذلك ، وأنزل منهجاً ، فعليكم أن تجعلوا بينكم وبينه وقاية ؛ تحميكم من صفات الجلال ، وتقرّبكم من آثار صفات الجمال [1] وأن تسمعوا إلى البلاغ من الرسل عليهم السلام ، وإلى مطلوباته سبحانه.

وما دام كل إنسان سيجيب عن أسئلة هذه الآية ، ويعترف أن الخالق سبحانه والمالك هو الله تعالى ، فعلى الإنسان أن يقى نفسه النار.

والعجيب أن الجميع يجيب بأن الله سبحانه هو الذى خَلَق ، فالحق سبحانه يقول: ﴿ولئن سألتهم مَنْ خلقهم ليقولُنَّ الله .. (٨٧)﴾ [الزخرف]

ويقول أيضاً : ﴿ولئن سألتهم مَنْ خلق السموات والأرض ليقولُنَّ الله ..(٢٥)﴾ [لقمان]

وما دام الله تعالى هو الذى خلق ، ورزق ، ودبَّر الأمر ، فكيف تتركون عبادته وتتجهون لعبادة غيره ؟

---

(١) صفات الجمال هى صفات الرحمة والمغفرة والرضا ، أما صفات الجلال فهى صفات القهر والعلو وكونه سبحانه هو العزيز. فعلى العبد أن يهرب من آثار صفات الجلال ليذوق حلاوة آثار صفات الجمال ؛ ليدخل فى عباد الله المتقين.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (١) ﴿٣٢﴾ ﴾

وقد جاء قول الحق سبحانه: ﴿فَذَٰلِكُمُ﴾ إشارة منه إلى ما ذكره قَبْلاً من الرزق، وملكية السمع والأبصار، وقدرة إخراج الحيّ من الميت، وإخراج الميت من الحي، وتدبير الأمر.

إذن: فقوله سبحانه: ﴿فَذَٰلِكُمُ﴾ إشارة إلى أشياء ونعم كثيرة ومتعددة أشار إليها بلفظ واحد؛ لأنها كلها صادرة من إله واحد.

﴿ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [يونس]

ولا يوجد في الكون حقَّان (٢)، بل يوجد حق واحد، وما عداه هو الضلال؛ لذلك يقول الحق سبحانه: ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [يونس]

إذن: أنتم إنْ وجَّهتم الأمر بالربوبية إلى غيره؛ تكونون قد ضللتم الطريق، فالضلال أن يكون لك غاية تريد أن تصل إليها، فتتجه إلى طريق لا يوصِّل إليها. فإن صُرفتم من الإله الحق فأنتم تصلون إلى الضلال.

ولذلك يُنهي الحق سبحانه الآية بما يبين أنه لا يوجد إلا الحق أو الضلال، فيقول سبحانه: ﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [يونس]

---

(١) فأنى تُصرفون: أي: كيف تصرفون عقولكم إلى عبادة ما لا يرزق ولا يُحيي ولا يميت. [تفسير القرطبي ٤/ ٣٢٦٧].

(٢) الحق واحد لا بمنظور الفكر البشري ولكنه بمنهج الحق ذاته؛ لأن حقائق الأشياء ثابتة، والعلم بها متحقق خلافاً للسفسطائية، وخلافاً لمن يعتقدون أن الباطل حق، والحق باطل فليس الحق خاضعاً لتخريف العقول، وتخريف الفكر بغية المخالفة والمغالطة.